نظرات هازلت[1]

ـ ٢٧ ـ

وليام هازلت هو الكاتب الناقد الإنجليزى صاحب الرسائل، وله مؤلفات أهمها رسائله فى موضوعات مختلفة، ويمتاز بالنظر فى النفوس وخصائصها. وفى بعض الأحايين يذكرنا مونتانى الفرنسى صاحب الرسائل، وله كتاب فى سيرة نابليون بونابرت كتبه من جانب الأحرار كما كتب السير والترسكوت سيرة نابليون من جانب المحافظين، وقد بلغ إعجاب هازلت بنابليون حدا لم يبلغه إعجاب جوتا الألمانى؛ فإن جوتا كان يعرف عيوبه، وقد كان هازلت مناصراً لنابليون حتى بعد أن تخلى عنه الأحرار الفرنسيون وبالرغم من أنه أرهق إنجلتره بحروبه، وكان هازلت من الأحرار الإنجليز، ولكنه كان ينتقد تطرف الأحرار أمثال شلى الشاعر الإنجليزى، فاعتناقه لمذهب الأحرار كان مقروناً بالطبيعة العملية وحب الصلاح العملى وفى حدود مستلزماته، فهو من هذه الناحية إنجليزى بطبعه. والظاهر أنه كان يناصر نابليون لأنه كان يعلم أن سقوطه يؤدى إلى روح رجعية فى فرنسا وغيرها كما حدث فعلاً بعد سقوطه. وكان هازلت معجبًا بأدموند بيرك وعبقريته بالرغم من أنه انتقد أعمال أحرار الثورة ومبادئها، وكان يقدِّر وردزورث الشاعر بالرغم من إنكاره انقلابه على مبادئ الأحرار، ولم تكن له منفعة شخصية فى مناصرة نابليون والإعجاب به، والذى يهمنا من مؤلفات هازلت نظراته فى النفس والحياة فى رسائله العديدة. ولعلّ هذا سبب إعجاب سمرست موام القصصى به، ولو أنه مدحه لطلاوة أسلوبه، وله كتاب (رسائل حديث المائدة) و (رسائل المائدة المستديرة) و (رسائل ونترسلو) وغيرها، وله كتاب فلسفى لاداعى للكلام

(١) المقتطف، يناير سنة ١٩٥١.

عنه إلاّ أن نقول إن شغفه بالفلسفة ربما كان من أسباب عمق بصيرته فى رسائله التى عنى فيها بالنظر إلى خصائص النفوس، وكان مولعًا فى صغره بالرسم، ولكن غلب عليه الأدب، وكذلك كان مولعًا بالشعر، وله رسائل فى نقد الرسامين والشعراء، وله بحوث فى قصص شكسبير وأشخاصها، وفى قصص شعراء عصر الملكة اليزابيث التمثيلية. ولعل دراسة هؤلاء كانت أيضًا من أسباب بحث خصائص النفس والحياة. وكان صديقًا لكولريدج الشاعر ولشارلز لامب صاحب الرسائل المعروفة. ولم يكن موفقًا فى حياته الزوجية، كما لم يكن موفقًا فى اجتذاب الأصدقاء واستبقائهم ولا فى تجنب الخصوم وتألفهم. وقد أثر أقوال الخصوم فى رأى بعض الكتّاب إلى عصرنا هذا. وقد اتهم بمناقضة نفسه؛ إذْ يمدح الإنسان ثم ينقده، ولكن ذمه أو نقده لمن نقد كان من جانب آخر غير الجانب الذى مدحه به، كما رأينا فى نقده لادموند بيرل الخطيب العبقرى وللشاعر وردزورث الخ. ومن قرأ رسائله وجد أنه فى أكثرها أعظم اتزانًا مما يظن خصومه. ولعلَّ كثيرًا من الإنجليز لم يغتفروا له ـ كما لم يغتفر بعض الألمان لجوتا ـ إعجابه بعبقرية نابليون وإصلاحه وتنظيمه، وذلك لاعتداء نابليون وإرهاقه الدول وتعطيله التجارة فسئمت تكاليف الحياة.

وفيما يلى بعض نظراته مع تعقيب قليل على بعضها:-

١ ـ إن الذين لم يتعودوا أن يجادلهم مجادل وأن يعارضهم معارض لايعرفون كيف يقابلون المعارضة والمحاجة. فإذا فاجأتهم معارضة تلمسوا طريق الفرار قانعين بالانخذال. ومفاجأة الأمر الذى لم يتعودوه تفت فى عضدهم فتصيبهم الدهشة والخوف من الأمر الغريب، وربما بعث الأمر الغريب الذعر والقلق والحيرة والارتباك، فالمعارضة والمجادلة والمحاجَّة أمور تعوّد المرء الاعتماد على نفسه وعقله.

٢ ـ إن حب الإنسان للحياة وتعلقه بها وتَشَبُّثَهُ لايكون على قدر هناءتها ودعتها، وما يلاقى فيها من دواعى السرور فإنك قد تجد الرجل المكدود الذى لاينال رزقه إلا بشق النفس أكثر تعلقًا بالحياة من الوارث المنعَّم الملول الذى يجد كل شىء مستطاعًا، ومع ذلك قد لايلذ له شىء، وربما بخع نفسه من الملل.

وإنما يكون تعلُّق الإنسان بالحياة على قدر رغائبه ومطالبه منها التى لم ينلها بعد ولم يحصل عليها. وكثيراً ما تكون العقبات والمطالب حافزاً له على التشبُّث بالحياة والاستمساك بها. فالذى يريد أن يتخذ من تشبث الإنسان بالحياة دليلاً على أن السعادة فيها أغلب وأعم من الشقاء، وأنها أمر قيِّم فى ذاته، إنما يتخذ منطقًا غير صحيح كى يثبت به أمراً ربما كان صحيحاً.

٣ ـ قد تكون شدة عاطفة الإنسان ورغبته سببها العوائق التى تعوق عن الأمر المرغوب فيه، وليست قيمته ولا عظم فائدته هى السبب. فكم من أمر كنا لانقيم له وزناً ولاقيمة، ولا نأبه له كثيراً وهو فى يدنا، حتى إذا خرج منها ولم يعد فى حيازتنا، اشتد طلبنا له وأسفنا على فقدانه إذا كان ليس فى استطاعتنا أن نحوزه.

٤ ـ كل ماهو خير فى نفس المرء قد يدفعه إلى الشر والإجرام لانتصاره لما يرى أنه حق وفضيلة، أو كمناصرته لعقيدته، أو كإخلاصه لوطنه، وذلك لأنه أصعب على المرء أن يبذَّ مخالفه أو خصمه بالفضل، وأسهل أن يقهره وأن يوذيه بالاعتداء والبطش، وفى كل نفس ـ مع ما فيها من خير ـ ميل إلى الشر مكبوت كالكلب المفترس المكمم، فإذا استطاع المرء أن يخلق عذراً لنفسه بأية وسيلة رفع الكمامة وأطلق ذلك الكلب المفترس والوحش الضارى وأجراه على الناس كى يؤذيهم، فكل ما ينقص الإنسان كى يصنع الشر هو اختلاق العذر ومن أجل ذلك ينبغى أن يحذر المرء جانب الخير من نفسه، وحيِّز الفضيلة منها بقدر حذره جانب الشر والرذيلة.

٥ ـ يقول بعض الناس: إن الرذائل إذا زُيِّنت وحُسِّنَتْ فقدت نصف شرها وعندى أنها تزداد شراً بتلك الزينة التى تكتسب من زينة أصحابها. ومن رشاقة ظاهرهم، أو من تغييرهم أسماءها، أو من تحليتها بشىء من الفنون الجميلة يُجَمِّلُهَا ويُخفى قبحها وشناعتها، أو من مظاهر الغنى والترف التى تغطى عليها، فيقبل الناس عليها، بدل النفور منها، ويرتادونها بدل الفرار عنها.

٦ ـ كثيراً ما يلجأ الناس إلى الاضطهاد فى معاملة ذوى الاضطهاد، وإلى قلة التسامح مع أعداء التسامح، فلا يزول الاضطهاد ولاتمتنع قلة التسامح، وقد يكون الاضطهاد لغير صد عادية ذوى الاضطهاد، بل للذة تجدها النفوس فيه.

٧ ـ إن تنبُّه عقل الإنسان للأمور لايكون على قدر الفائدة والعائدة من تلك الأمور، وإنما يكون على قدر وقعها من نفسه وأهوائها وهواجسها، وقد لاتتناسب شدة وقعها من نفسه وأثرها فيها مع الفائدة المرجوة منها، بل قد يكون أثر شدَّة وقعها من نفسه مثل أثر الإشراف من مكان مرتفع على هوَّة سحيقة، فيحسُّ المرء إحساسًا بالاندفاع إلى تلك الهوة، وذلك الحضيض، ويكاد يرمى بنفسه فيه، وقد يفعل وهو يعرف أنه هالك لامحالة إذا فعل، وأنه لافائدة له إذا رمى بنفسه فيه.

٨ ـ إن بعض الناس لهم قدرة غريبة على ربط أنفسهم بكل موضوع للحديث حتى يصير حديثًا عن أنفسهم بعد أن كان حديثًا عن الموضوعات العامة مثل الكتب أو الحضارة أو الريف أو الشعر أو الفلسفة أو السياسة أو المجالس النيابية أو المبانى أو أى موضوع آخر لاصلة لهم به، ولكنهم بمهارة سحرية يحولونه إلى حديث عن أنفسهم، وإلى محاولة لتمجيد خصالهم وصفتهم وأعمالهم، حتى إن جليسهم يكاد لايعرف كيف تحوَّل الموضوع.

٩ ـ ومن الناس من لهم موضوع حديث واحد غالب عليهم ولازم لهم لزوم الظل لصاحبه (فإذا كان الحديث عن الحلاقة حوّلوا كل حديث مهما كان موضوعه إلى حديث عن الحلاقة) ومثلُ هؤلاء مثلُ الآلة الموسيقية التى لاتخرجُ غير نغمة واحدة، ويدور بها الشحاذون يستجدون فيطلقون النغمة الواحدة منها فى كل مكان مرَّة بعد أخرى. وكذلك أصحاب الفكرة الواحدة أو القصة الواحدة التى لاتفارقهم ولا يفارقونها أبدًا ويحكونها ويرددونها فى كل مجلس حتى المجالس التى سبق ترديدهم لها فيها، ويجدون لذةً فى ذلك، ولا يشعرون بما يعانيه جلساؤهم من ألم وملل وامتعاض.

١٠ ـ ومن الناس من يأبون إلا أن تقتنع بآرائهم، فإذا سكتَّ وشعروا أن سكوتك من عدم الاقتناع، لجوا فى ذكر آرائهم وترديدها وإعادة ذكر حججهم ويأبون تغيير موضوع الحديث إذا حاولت أن تغيره بلطف، وإذا اعترفت لهم بما يريدون كى تتقى إلحاحهم وشعروا أن اعترافك لهذا السبب وحده دون الاقتناع،

فإنهم ربما أعادوا الكرَّة عليك بآرائهم وحججهم، ولا تقنعهم مجاملتك لهم حتى يروا مظاهر الاقتناع منك بادية عليك، سواءٌ أكان وراءَ تلك المظاهر اقتناعٌ حقيقى أم كنت ماهرًا فى تزييف مظاهر الاقتناع حتى يخدعوا بها.

١١ ـ قال الإسكندر المقدونى: لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجنيز الفيلسوف. وهذا الاستثناء صفة عامة فى النفوس، فإذا سمعت إنسانًا يود أن يكون إنسانًا آخر فهو إنما يود أن يظل على شخصيته، وأن يزاد عليها ثروة المغبوط أو علمه أو ذكاءَه أو جاهه أو قوته إلخ. أما أن يتمنى المرء مع حيازته لهذه الأمور المغبوطة أن يفقد شخصه ونفسه فأمرٌ لايقبله أحقر صعلوك، لأنه لو فقد ما يميزه عن غيره من ذكريات وخواطر وصفات وآمال وإحساسات وصار انسانًا آخر لم ينتفع بالأمور المغبوطة التى حازها، بل المنتفع يكون إنسانًا آخر غير نفسه، وقد خسر نفسه بدل أن يزاد عليها.

١٢ ـ بالرغم من صغر شأن كل إنسان فى العالم ومعرفته صغر شأنه فإنه قلما يطمئن إلى أن العالم لايباليه ولايهتم له كما يبالى نفسه وكما يهتم لشئونها فيدهش ويرى أن ذلك من قلة الإنصاف كأنه يرى أن من الواجب أن يبالى العالم نفسه وشئونها كما يباليها هو، مع أن الأمر عكس ذلك؛ إذ من الأمور الطبيعية ألا يقيم الناس وزنًا لأموره كما يقيم هو وزنًا لها، وقد يفطن إلى ذلك بعد الغفلة، ولكن هذه الفطنة لاتلبث أن تزول، فإذا فوجئ مرة أخرى بالشعور بقلة مبالاة الناس إياه دهش مرة ثانية ثم مرة ثالثة، وهكذا لاتفاجئه تلك الدهشة كلما فوجئ بقلة اهتمام العالم له كما يهتم لنفسه، وعدم إقامته وزنًا لأمور غيره كما يقيم لها وزنًا. وقد تكون دهشته فى كل مرَّة مثل دهشته فى المرة السابقة وقلقه وقلة اطمئنانه مثلهما فى كل مرَّة يشعر أن العالم لا يباليه كما يبالى أموره ولا يفيد من المرات السابقة عظة.

١٣ ـ إن الذين يبالغون فى قدر قيمة فضائلهم أو مزاياهم أو آرائهم كأنهم ينظرون بعين من أصابه اليرقان، إذا نظروا إلى آراء غيرهم أو فضائلهم أو

مذاهبهم أو مبادئهم، فتظهر لهم كما تظهر الأشياء مصفرة كريهة فى عين من أصيب بداء اليرقان، والذين عانوا الاضطهاد من غيرهم كثيرًا ما يتعلمون منه كيف يضطهدون غيرهم بدل أن يتعلموا ضرورة التسامح. ومن أجل ذلك يصل الناس إلى قَصرِ صدق النظر والمبدأ والأخلاق والرأى على طائفتهم وحدها مهما تكن تلك الطائفة صغيرة، وهذا ضيق فى الذهن لايمكن صاحبه من أن يفهم أن عقول الناس تختلف كاختلاف وجوههم، وأن اختلاف الآراء والمبادئ والمذاهب أمر ضرورى، وأن أنواع الفضل متعددة، وينبغى أن نقبلها على اختلافها، فإن اختلافها دعامة الحياة.

١٤ـ إن الناس يقيسون الدنيا وأمورها بأنفسهم لابقدر تلك الأمور، فما بعد عنهم مكانه فى الأرض أو منزلته من نفوسهم صغر حتى ولو كان كبيرًا عظيمًا. وشأنهم فى ذلك شأنهم فى قدر الحوادث والأمور التى يبعد بها الزمان فتقل قيمتها إذا ابتعدت بعد قربها، فسيان أكان البعد بالمكان والمنزلة أم بالزمان فإنه يصغر قيمة الأمور.

١٥ ـ من الناس من يلطخون إنسانًا بالوحل، ثم ينادون أنه ينبغى تجنبه لأنه ملطخ بالوحل، وهى عادة فاشية فى الناس فينسبون إلى خصومهم صفات سيئة، ثم يتخذونها حجة لاضطهادهم وحث الناس على اضطهادهم، وهذا أمر يقلب مقاييس العدل فى الأمور؛ إذْ يصير الجانى المجرم حكمًا ينال الثناء ويصير المجنى عليه آثمًا نصيبه العقاب.

١٦ ـ إن الشباب يشعر بالقوى الحيوية أكثر من الشيوخ. ومن أجل ذلك قلما يدرك الشباب معنى الفناء والموت مهما رأى من مظاهرهما فى غيره؛ فإن ذلك لايكون إلاّ بعد أن يفقد الروح الحيوية التى فى الشباب. وبعد أن يشعر بالفناء يدب فى جسمه، وبعد أن يرى آماله ومسراته تذوى كما تذوى الأزهار، أما قبل ذلك فإنه يشعر فى الشباب أن الحياة كنز لايفنى، وكأس من الرحيق لا يفرغ مهما احتسى منها وأراق، وذخر لاينفد مهما بذل منه؛ لأنه روح الخلد فى الشباب. ومن أجل ذلك يسرف الشباب فى بذل ما يفيض به من قوى الشباب وحيويته

إسرافًا قلما تنفع معه موعظة، ويقدم على المهالك بشيء من الاطمئنان، ولا يغتر أحد بكثرة شكوى الشبان، فإنها لا تنافى ذلك، بل هى ناشئة من أنهم قد لايجدون إسعافاً من الدهر بقدر ما فيهم من حيوية وآمال ورغبات.

١٧ ـ إن الناس مثل آلات تدار أو حيوانات يعلق عليها نير مناصب الحكومة أو الأعمال الحرة والمهن والحرف، فيسيرون فى الطريق التى اختطها من سبقهم، وينجحون فى تأدية ما يراد منهم ويسعدون بنجاحهم، فكأنما ذلك النير هو نير السعادة وسرجها ورباطها. وكل ما يطلب منهم ألاَّ يدعوا أنهم أحكم وأعرف من غيرهم ممن أدركهم أو سبق عصرهم، فإذا هيأ لهم حب الظهور أن يظهروا ذكاءً أو غروراً أو اغتراراً بالحكمة أو أنهم يعرفون من الأمور المنوطة بهم مالا يعرفه غيرهم، فإن ذلك قد يكون سبب خيبتهم، فإنه إذا صرفنا النظر عما يجلبه عليهم هذا المظهر من عداوة وحسد، فقد يتخبطون فى التجارب والنظريات، ولو فرضنا أن إنسانًا منهم مصيب فى بعض آرائه وخططه فإنه قد يغالى بقيمتها شأن أكثر المبتدعين فتفقده المغالاة الاتزان والاعتدال. وعلى العموم أو فى الغالب يكون حذق الجماعة أعظم من حذق الواحد الفرد، ورأيهم أصوب من رأيه، وخبرتهم أعظم من خبرته إلاَّ من شذَّ وندر، ولا يصح أن يتخذ كل إنسان الشاذ النادر من الملكات قاعدة، وأن يعد كل إنسان نفسه من ذوى الملكات النادرة، وإلاَّ ماكانت كذلك، وأمور الحياة تقتضى المشاركة والتعاون، وإذا زَوَى الإنسان وجهه عن الأمر المألوف المعتاد، وحاول بتجنبه أن يختط لنفسه خطة جديدة لم يجد مشاركة ولا معاونة من الناس، وانصرفوا عنه أو اضطهدوه، وهى سنة وطبع فيهم، تسبب اعتدال أمور العالم وثباتها، بدل تقلقلها وتدحرجها وترجّحها.

١٨ ـ قد تختلط فى نظر بعض الناس طيبة القلب وعدم المبالاة؛ فإن ذوى الأثرة وحب الذات لا يبالون أخربت الدنيا أم عمرت، وهل عمَّ الفساد أم لم يعم، وهل انتشر الشر أم لم ينتشر، وهل خُذل الحق، أم لم يُخذل، وهل اشتدت القسوة، أم لم تشتد، مادام كل ذلك لايمس مصالحهم، فتحسب قلة مبالاتهم وأخذهم الأمور بالخلق الهين اللين من طيبة قلبهم، مع أنهم لو مُسَّ أمر من أمورهم، زالت قلة مبالاتهم وأظهروا عنفًا وشدة.

١٩ ـ إننا لانبلغ الحق ولا ننصف الناس إلاَّ إذا عرفنا وقَدَّرْنا جانب الصواب والحق الذى كثيراً مايكون ممزوجًا بأخطاء الناس وأغلاطهم، فإذا جافينا أو أخطأنا ذلك الجانب من الصواب والحق، أو حدنا عن الحق الممزوج بالباطل المنقود، فإننا قد نخطئ بقدر خطأ من ننقدهم أو نلومهم.

٢٠ ـ يحسب المرء أن استسلامه للخيال اللذيذ، وأحلام اليقظة السارَّة، أمر برىء لاضرر منه. والحقيقة هى أن من يتعود ذلك الاستسلام كثيراً ما يضعف عزمه ويفقد الأهبة والاستعداد والنشاط للعمل، ويدعوه استسلامه للخيال إلى الاستنامة إلى ما قد يأتى عفواً من غير تدبير منه، أو سعى أو كدّ وكدح، وكذلك من ينصرف إلى التفكير النظرى كل الانصراف. ولا يتعودَّ التفكير فى الأعمال، فإن ذهنه يشغل بحقائق بعيدة يكون المرء أمامها كالناظر المتنزه بالنظر والتأمل ليس له موارد من همه يجهزها لملاقاة حقائق الحياة القريبة ولا من عزم وعمل وإقدام ينال به خيرها، ويصد عنه شرها ويحتال لها، بل قد تدركه الحيرة.

٢١ ـ ينعى بعض الكتَّاب على الفقراء دناءة حسدهم للأغنياء، ولا ينعون على الأغنياء دناءة الإسراف فى اللهو، وهم يرون الفقراء يُعْصرون فى معصرة الشقاء، ويداسون كما يدوس صُناع النبيذ العنب بأقدامهم.

٢٢ ـ لو كان اعتياد المرء الآراء بسبب قهر المنطق الصحيح لعقله ولنفسه على أن يعمل لرأى أو فكرة ما ـ لكان كل الناس شهداء المنطق والفكر، ولايستطيعون أن يخففوا عن أنفسهم وعن الناس مما يقتضيه العمل حسب ما يوحى به، ولكن الواقع أن الناس تستطيع أن تعتقد ما يوافق إحساساتهم، وهذا يمكنهم إذا كان فيه راحة لهم أو منفعة، وأن يخففوا عن أنفسهم أو عن الناس كما يمكنهم من مناقضة أنفسهم إذا كان فيها تخفيف عن أنفسهم أو عن الناس.

٢٣ ـ من أسباب قبول الناس للآراء والأخبار والشائعات أن كل انسان يخشى أن يشذ عن الناس ويخاف ألا يكون مثلهم. ومن أجل ذلك يلتقفون الآراء والشائعات والأخبار بعضهم من بعض، فهذا الإنسان يصدق أمراً ويقبله لا لأنه أمر يصدق، بل لأن ذلك الإنسان يصدقه ويقبله. وأغرب من ذلك أن هذا

الإنسان يصدق ويقبل الأمر الذى يخيَّل له أن ذلك الإنسان سيصدقه وسيقبله أو سوف يقبله، فيسبقه إلى تصديق ذلك الأمر، وربما كان هذا السبق سببًا فى أخذ المعاشر المسبوق به وتصديقه إياه، ولولاه ما أخذ به كما زعم السابق أنه سيأخذ به.

٢٤ ـ فى بعض الأحايين نرى أن شدة الشغف بغاية ما، وشدة اللهفة للوصول إلى الغاية والمقصد تعوق عن إجادة الوسيلة التى تؤدى إلى تلك الغاية؛ لأن الوسيلة تحتاج إلى تأنٍّ وصبر وجلد وزمن ومران، فيراها الملهوف طويلة مملةً، وتسبقها لهفته فى الوصول إلى الغاية المنشودة، فيحاول الوصول إلى غايته من أقرب الطرق، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يخطئ طريقها، ولا يجيد فى وسيلته إليها.

٢٥ ـ إذا رغبنا فى أمر زاد اعتقادنا إياه وتصديقنا به، وصرنا أكثر عنادًا فى الدفاع عنه، ولكنا إذا خالفنا الناس جميعًا ربما اعترانا الخجل من إظهار رأى يخالفه الناس جميعاً، حتى ولو كان عين الصواب، فإن قدرة الناس تضغط علينا، سواء أشعرنا أم لم نشعر بها، كما تضغط قوة الجاذبية على جميع الكائنات. والإنسان الذى يستمر فى الدفاع عن رأيه من غير أن يتأثر بمخالفة الناس وسخرهم وكرههم إياه وحرمانه من عطفهم، وبالرغم من إيذائهم إياه ـ يكون ذا عزيمة كعزيمة الهندى الذى ينذر لآلهته أن يظل رافعًا يده إلى السماء حتى تتبلد وتجمد وتفقد الإحساس. ولاشك أن عداء الناس للمرء محنة قد تبعثه إلى الشك فى بواعث نفسه ونياتها ومقاصدها، وكأنما قد زحزح جِنِّىٌّ مارد الكرةَ الأرضية من تحت قديممه وظلَّ معلقًا وحده فى الفضاء.

٢٦ ـ زعم هوبز الفيلسوف أن الناس لايختلفون فى أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين، وأن مجموع الاثنين والاثنين أربعة؛ لأنهم لا مصلحة لهم فى هذا الخلاف. ولو كانت للناس شهوة ملحَّة، أو منفعة فى إنكار ذلك لأنكروا هذه الحقائق الرياضية، والواقع أنهم عند تطبيقها فى أمور الناس التى تستدعى الشهوات والرغائب والخلاف يختلفون فعلا فى هذا التطبيق.

٢٧ ـ كثير ممن يدينون بالديمقراطية يدينون بها نظريا، أما فى الأمور العملية فإن كل إنسان لايدين بالديمقراطية ولا يأخذ بمبدئها الذى هو مبدأ المساواة، ويود لو يضحى بالناس لإشباع أطماعه، وأن يخفضهم كى يعلى نفسه.

٢٨ ـ قلما يوجد بين الناس من عنده شجاعة كافية للدفاع عن إنسان صديقًا كان أو غير صديق إذا ترددت حوله أقوال الناس بالتهم والشتائم فإنه يخشى أن يتهم مثله. وأن يلاقى عداء من الناس، هذا علاوة على أن كل إنسان يميل إلى إعلاء نفسه بشتم غيره وانتقاصه، فإذا وجد الناس يلتقطون إنسانًا وجد السبيل موطأ إلى هذا الإعلاء لنفسه (ولو وكل الخصم كما قال هلبس كمحام بأجر مقنع للدفاع عن خصمه لوجد من أبواب المدح ما يبطلُ به ذمه لخصمه).

٢٩ ـ ينسى الناس فى معاملتهم أنهم لايتعاملون بالعقل النظرى المحض، وإنما يغطّى على أعينهم فيحسبون هذا الحسبان، وإنما هم يتعاملون بما هم محكمون به من الشهوات الجامحة والنزعات الشاردة، وقد يتخاصمون ويسعى كل فى أذى الآخر بسبب الاختلاف فى أتفه الأمور، فهم كالأطفال المدللين، فحياة الناس كثيرًا ما تكون لعبة من لعب التمويه والغش، فهم يريدون أمرًا وسعادتهم فى غيره، أو أنهم يجدون السعادة فى ذلك اللعب نفسه، ولكنهم فى النهاية ربما يجدون سؤر كأس تلك السعادة مُرا كريهًا.

* * *

نظرات السير أرثر هلبس[1]

ـ ٢٨ ـ

إن بعض نظرات السير أرثر هلبس تذكرنا قول جوتا: ـ

«إن الصواب المجهول إذا عرفه الإنسان كانت له فجاءة الأمر المتوقع وبغتة الأمر المعروف المنسى». كما أن بعضها يذكرنا قول جوتا أيضًا:

«إن الناس يزهدون فى الحق؛ لأنه معروف مملول مألوف، والألفة تبعث الملل، وهم لا يستطيعون تطبيقه وإنجاحه وتحقيقه فهو يشق عليهم فى العمل، وإن كان لا يشق عليهم فى الفكر».

ولقد كان منذ عهد الصغر كثير القراءة والاطلاع، وكان يجمع بينهما وبين التفكير فيما يقرأ، فنشأ عن ذلك أنه نشر نظراته فى عهد الشباب، فدلت على حكمة الكهول وعلى إصالة الفكر، وكان من أصدقائه أرثر هالام وتنيسون وغيرهما من الكتّاب والشعراء. وكان مثقفًا ثقافة عامة، فكان قصصيا، وكان مؤرخًا، وكان كاتبًا أديبًا، وكان سياسيا من الأحرار المعتدلين، وكان ملما باللغات وآدابها، وقد ذكره رسكين فى بعض كتبه وقرنه إلى أفلاطون وكارليل وقال عنه: إنه كان ذا بصيرة بالأمور وأصالة فى الرأى.

وقد نسى الناس قصصه وكتبه التاريخية ولم يبق غير نظراته وأفكاره ورسائله. وهذه نظراته تدع القارئ يحكم عليها أو لها. وهو سيجد فيها فكرًا عميقًا وبصيرة بالنفس الإنسانية، كما سيجد فيها طلاوة الخيال الذى يوضح الحقائق ويفسرها،

(١) المقتطف: فبراير ١٩٥١.

وقد تولى منصبًا فى المجلس الخاص فى عهد الملكة فكتوريا، وكان من المقربين لديها.

وفيها يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب:-

١ - إذا أساء إلينا مسىء وكانت لنا سلطة وقدرة عليه وتحكُّم فيه فإننا قد نشعر بالغضب ونظهره أكثر من شعورنا به وإظهاره إذا لم تكن لنا تلك القدرة على المسىء، وهذا من طغيان الطبيعة البشرية التى قد تسهّل على المرء تحمل الإساءة ممن لا سلطة له عليه، ثم يقتص لنفسه ممن له سلطة عليه، بإظهار الغضب والاستسلام له والتمادى فيه.

٢ كثيرًا ما ننسى أن من الناس ناسًا يلبسون نفوسهم كمن يلبس ثيابه مقلوبة، فيظهر الوجه الأقل حسنًا ويختفى الوجه الزاهى الكثير الحسن.

٣ - من الخطأ أن يقال إن المرء إذا تعود معرفة عيوب معاشريه ونقائصهم لا يأبه لها ولا يحسّ بها، فالواقع هو أننا نزداد شعورًا بها حتى أننا كثيرًا ما نحسب أننا نجدها فى حالات لا توجد فيها ولا ترى، وذلك من سوء الظن الذى يلازمنا فى عشرتهم.

٤ - ليكن اغتفارك ما تغتفره للناس وما تصفح عنه أشبه بالنسيان منه بالاغتفار، لأنه إذا لم يكن كذلك كان الاغتفار أشبه بالمنّ عليهم والاعتداء الذى يكرهونه، وقد يمقتونك من أجله.

٥ - لا تتوقع أن تسمع من كل إنسان شرحًا مقنعًا لأسباب سلوكه، لأنه كثيرًا ما يغفل عن أهمها أو يسهو عنها أو ينساها ولو أن أثرها موجود فى نفسه. وكثيرًا ما يتقدم المرء للسامع بالأسباب التى يظن أنها راجحة محبوبة عند سامعه وإن لم تكن أسباب سلوكه الحقيقية أو أهمها، وإنما يفعل ذلك تقربًا إليه ورغبة فى نيل التزكية منه، فتتم تلك الأسباب التى يفسر بها سلوكه عن رأيه فى خصال سامعه الذى يزكى نفسه لديه وتفشى رأيه المستتر فيه.

٦ - من الصعب الحكم على أسباب الخصومة؛ لأن ظروفها القريبة قد لاتكون ذات صلة بالأسباب الحقيقية، كما أن مكان المعركة قد لا يكون سبب حدوثها،

وكثيراً ما تختفى الخصومة كاختفاء الماء الذى يجرى فى بطن الأرض ويخرج فى مكان سحيق بعد أن تعتوره أحوال عديدة، ولا يدل مكان ظهوره على نشأته.

٧ ـ إذا تعودت الاستسلام لمحبى أنفسهم من ذوى الأثرة طلبًا للراحة من عناء إلحاحهم، فإن ذلك كثيراً ما يؤدى إلى تضييع ما هو أمانة فى عنقك من مصالح الناس عامة، وليس بعد تضييع الأمانة إلا إنكارها وإنكار تضييعها والإمعان فى الظلم وما يجره من الفساد والشرور وسخط الناس.

٨ ـ لا تجعل غضبك وامتعاضك مقياسًا لخطأ أحد الناس، فإن الغضب والامتعاض قد لا يعادلان إساءته أو خطأه، وإذا تعودت ذلك تعودت الظلم وقلة الإنصاف، لأن للنفس حالات تغضب فيها من الخطأ القليل، غضبًا أشد من غضبها من الخطأ الكثير فى حالات أخرى أو مع أناس آخرين.

٩ ـ كثيراً ما يهوى الناس مناقضة الصفات المعروفة فى نفوسهم ومخالفتها، فترى الرجل الكثير التغاضب والشراسة يجنح فى بعض الأحايين إلى اللطف والدعة والتسمُّح لكى يضلل الناس إذا أحس أنهم فطنوا إلى شراسة طبعه.

١٠ ـ لو أعطى الإنسان القدرة على أن يتحول بالتمنى وأن يكتسب به جمالاً لما تمنى إلا ما يجعله نسخة جميلة لشخصه قبل التمنى، وكذلك لو استطاع أن يحول نفسه بالتمنى فإنه لا يتمنى لها إلاَّ أن تكون نسخة جميلة من صورتها الأولى قبل التمنى.

١١ ـ لو بحثنا ما يسميه الناس الثبات فإننا نجده فى كثير من الأحوال الإلحاح الناشئ من حب الذات والإصرار الناتج منه فيتزيَّا، فى رأى الناس بزى الثبات على المبدأ ويسمى باسمه.

١٢ ـ لو استطاع الساخط على إنسان أن يحس كأنه محام يدافع عن المغضوب عليه بأجر يرضيه، لدهش لكثرة الحجج التى يستطيع أن يدلى بها لصالحه، كى يثبت براءته أو عذره وكى يثبت إساءة نفسه فى سخطه.

١٣ ـ إن سرورنا بمن نستطيع أن نغير رأيه أعظم من سرورنا بمن يوافقنا قبل الحاجة، وقد يعرف الماكر هذا الأمر فيختلف معنا اختلافًا قليلاً ثم يعود فيظهر الاقتناع برأينا كى يسرنا سرورًا يدفعنا إلى قضاء حوائجه.

١٤ ـ إذا استسلمت إلى سوء الظن وجدت غذاء كافيًا لسوء ظنك يزكيه، كما أن أذن المؤرق اليقظان يسترعى انتباهها فى سكون الليل كل صوت خافت.

١٥ ـ إن الناس يلجئون إلى الغش ويعدونه أسهل الوسائل وأقربها، مع أن صاحب الغش لا بد أن يكون ذا نفس يقظى وعينين متنبهتين وأذنين سامعتين لكل أمر، كى لا ينكشف غشه فهو فى أشق الأمور، وأسهل منه الصدق فى المعاملة فلا يحتاج الصادق إلى تنبه جوارحه لتغطية كذبه.

١٦ ـ إن الناس يعتدون النصيحة التى ينصحهم بها غيرهم كالضرائب المباشرة المفروضة عليهم كلما ازدادت ازداد مقت الناس لها، وقلما يلتجئ المرء إلى طلب النصيحة من غيره إلاّ إذا أراد تزكية ومدحًا منه لعمله أو قوله أو فكره. وإذا فطن أن فى النصيحة من غيره فائدة لغيره شك فيها وتجنبها حتى ولو كانت فيها فائدة لنفسه، وأضيع النصح أن تنصح إنسانًا بعمل ما لا يستطيعه.

١٧ ـ إن ذا الحاجة إذا طلب منك طِلبًا وكانت فى قولك له كلمة يصح أن تحمل على محمل الوعد وأن تُؤَوَّل إليه وأن تفسر به فإنها تكبر فى ذهنه بالأمل حتى تصير كالجنى المارد الذى خرج من القمقم فى قصة ألف ليلة ويقاضيك إياها ويعدك حانثًا كاذبًا قليل الوفاء كثير الغدر.

١٨ ـ من الأمور المضحكة المعتادة أن نرى إنسانًا يلح على آخر كى يقبل منه عطاء أو هدية أو معروفًا، وصاحب العطاء أو المعروف فى سريرة نفسه لا يريد من الآخر أن يقبل معروفه أو هديته أو عطاءه، بينما نرى الآخر يقبل العطاء متضايقًا من إلحاح الأول ويخشى أن يجرح إحساس ذلك الملح إذا رفض عطاءه أو معروفه، وهو بقبوله المعروف يزداد مقتًا فى سريرة الأول.

١٩ ـ قد يكون غضب إنسان منك ناشئًا من غضبه على نفسه بسبب استسلامه إلى هذا الغضب وعدم قدرته على كبحه وقلة تقديرك لهذه الحالات النفسية منه.

٢٠ ـ إن الأمور النبيلة الجليلة إذا تأملها المرء طويلاً بإنعام ولم يتأمل غيرها فإنها قد تجعله غير قادر على تبين الأمور والحكم عليها حكمًا صحيحًا، ومثله مثل من ينظر إلى الشمس المتوهجة مدة طويلة حتى لا يستطيع أن يميز الأشياء.

٢١ ـ كما أنه من الصحيح فى العلوم الرياضية أن يقال إن النقطة الواحدة لا تعين اتجاه خط مستقيم وهى أحرى ألا تميز اتجاه الخط المعوج. كذلك لا تستطيع أن تحكم بعمل واحد يعمله المرء على خلقه بوجه عام. فإن خلق الإنسان حتى من كان ساذجًا كثير الاعوجاج. ومع ذلك يسرع الناس إلى الحكم على أخلاق إنسان بعمل واحد من أعماله.

٢٢ ـ إن من إتقان النفاق والخداع أن يكون صاحبهما عادلاً مستقيمًا صريحًا شريفًا فى الأمور التى لا تعنيه ولا تعوقه عن مطلبه، ومن أجل ذلك صار المخادع الماهر لا يستخدم خداعه ونفاقه فى كل أمر.

٢٣ ـ يقال فى علم الطبيعة إن اعتراض نوعين خاصين من الأشعة، قد يحدث ظلامًا فى نظرك. وكذلك اجتماع الحجج المتخالفة فى المحاجة للأمر وضده قد يحدث ارتباكًا وظلامًا فلا تستبين الأمور إلا إذا بحثت كلا منها على حدة.

٢٤ ـ كثيرًا ما ينسب إلى الرجل الجاهل أكثر الرذائل أو الفضائل؛ لأن الجهل يبعثه إلى سوء الظن وإلى القسوة وحب الأذى وكره الفكر والمفكرين، كما أنه قد يتبع قدوة الناس من غير فكر فيضل إذا ضلوا ويصيب إذا أصابوا فى عمل الخير، وهو فى هذه الحالة الثانية يكون محسوبًا من ذوى الفضل والفضائل.

* * *

تابع نظرات السير أرثر هلبس[1]

ـ ٢٩ ـ

٢٥ ـ إنك قلما ترضى رجليك إذا مدحت كلا منهما مدحًا مساويًا لمدحك الآخر بلا فرق ولا تمييز؛ لأن طالب المدح إنما يريده كى تكون له ميزة على غيره.

٢٦ ـ كما أن بعض الناس يرغب فى الرذائل لأن سبيلها سهل موطأ، فكذلك يرغب آخرون فيها بسبب العوائق التى تعترض سبيلهم فتشهيهم مكافحة العوائق وتجعلها محبوبة لديهم.

٢٧ ـ قد يحترم الناس الرجل الذى يدوس عواطفهم ويؤلم إحساساتهم إذا وجدوا أنه لا يتحرج من أن يدوس عواطف نفسه وأن يؤلم إحساساتها. أما الرجل الذى يؤلم إحساسات غيره كى يرضى إحساسات نفسه وعجبها فإنه لا ينال إلا المقت والاحتقار فى صميم نفوس الناس، ولو أن بعض المعجبين يستهوون الناس بعجبهم وغرورهم فيخضع لهم الناس فترة طالت أم قصرت.

٢٨ ـ كثيراً ما يكون احترام المحب للمحبوب من رماد الحب بعد فنائه، وكثيراً ما يتلجئ إليه المحب الذى فنى حبه كى يخفى به فناء الحب فيحسب الناس دليلاً عليه لما قد يجدون منه فى الحب، ولكنه قد يكون من ندم الحب إذا فنى حبه.

٢٩ ـ من الخطأ أن يقال إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نقائص نفسه فإنه كثيراً ما يعرفها، ولكنه يسميها أسماء أخرى خداعًا للناس وتضليلاً لهم ولنفسه. وهو يعوضهم عن ذلك الخداع المضلل بأن يبادر بتسميتها بأسمائها الحقيقية إذا

(١) المقتطف: مارس سنة ١٩٥١.

لاحت له فى غيره، أو إذا حسب أنها لاحت له، أو إذا اتهم بها غيره بحق أو بغير حق.

٣٠ ـ لا تحسب أن المصيبة تمحق كبر الرجل المتكبر إذا حلت به، بل إن كبره لا يزال به موجودًا، وقد يتخذ أشكالاً وألوانًا أخرى وينتهز فرصة لاستعادة شكله الأول.

٣١ ـ لقد صدق باسكال العالم الرياضى الفرنسى إذ قال: إننا نعطف على من كان به اعوجاج فى قدمه بسبب عاهة، ولكنا لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره، لأن الأول لابد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه، أما الثانى فإنه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت أننا على اعوجاج فى الفكر ـ ومع صحة رأى باسكال ينبغى ألا نعنف مع صاحب الرأى المعوج وأن نعطف عليه وأن نعتقد أن ذلك من آفة فى عقله كآفة القدم المعوجة أو كآفة الصمم أو البكم، وأن نتذكر أننا أيضًا كثيرًا ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل، فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وإن كنا نأبه له.

٣٢ ـ إن للفكر أخذة. ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الأفاضل منهم لايتحرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم؛ كى يثبتوا صواب فكرهم فى أثناء بحثهم، إما من شغفهم بإثباته، وإما لنيل المدح من الناس، ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية. وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلى الصواب فهذا الصواب يكون مثل الممالك التى نزورها فى الأحلام، وقد نعرف أننا فى أحلام إذا فكرنا فى طريق الرحلة إليها (وهذا كما فى قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الأفاضل فى البحث العلمى فهو أحرى أن يكون شأن الناس عامة فى حياتهم اليومية.

٣٣ ـ إن أهل الاستكانة تعوزهم الجرأة على طلب حقهم، فإذا لم تقم أنت بكل حقهم ركبت الشطط فى معاملتهم وسهل عليك الظلم واغتصاب حقوق الناس والرغبة فى استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل؛ إذ قد تعد استكانتهم

دليلاً على نيل ما يستحقون، ولا أمر يتلف صحة رأى المرء فى العدل مثل العيش بين أهل الاستكانة، فإذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر ظلمه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتده ظلمًا.

٣٤ ـ يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل؛ لأنه لا أساس له ولا قوة فيه، ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى فى النفوس، ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها، وقد تكون لها قوة شر كبيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها. (وهذا يذكرنا قول ثاكرى: إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة، ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتل مكانًا كبيرًا وترسم خطا طويلاً).

٣٥ ـ قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والفكر، ولكنه إذا صار عادة ونيرًا أصبح شللاً لهما.

٣٦ ـ كثيرًا ما يؤدى الندم إلى اليأس من أداء الخير، مع أن المفروض أنه ينبغى أن يؤدى إلى معاودته والتزامه، وإنما يؤدى إلى اليأس من أداء الخير؛ لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على حيانه كلها، فيكون مثله مثل من يدع النقطة من السائل الأسود تغطى على جميع ثوبه بدلاً من تلافيها من أول سقوطها، أو كمن يجد صخرة فى النهر أو عكارة فى نقطة فى جزء من الماء فيحسب أنها تدل على الماء كله.

٣٧ ـ إذا أردت أن تفهم عصرك فاقرأ ما يكتب فيه من القصص؛ فإن المرء كثيرًا ما يريد أن يخفى نفسه فى نفس القاص كى يتمادى فى وصف الرذائل وصفًا مغريًا يحببها إلى الناس وهو يزعم أنه ينهاهم عنها.

٣٨ ـ قد توضح حياة المرء ما التبس فى قوله، فهوبز الفيلسوف الإنجليزى الذى زعم أن الدولة هى كل شىء، وأن الناس إذ أنشئوا الحكومات أسلموا لها كل حق ـ قد اعترف للورد كلارندون أنه إنما فعل ذلك كى يتحبب إلى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه. وريدولفى قد نشر رسائل لماكيافيلى يستعطف فيها بعض الأمراء ويشكو إليهم سوء حاله ويقول فيها: إن مبادئ الطغيان التى ذكرها

فى كتابه (الأمير) إنما ذكرها تزكية لأعمالهم فى الحكم، وأنه من أجل ذلك يتسحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة، وقد زعم كتّاب آخرون أن هؤلاء الكتّاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق فى توحيدها؛ صيانة للأمن، وجلبًا للوحدة بأية وسيلة حتى الوسيلة العنيفة الشديدة (وذلك هو ما زعم ماكولى فى رسالته عن ماكيافيلى) ـ وربما كان الدافعان موجودين فى نفس القائل عند قوله ما ذكر.

٣٩ ـ إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لطف أو عطف، وأن يسىء به الظن؛ لأنه لا يعرف سببه والباعث له، فإنه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لا يعرف منابعه.

٤٠ ـ بعض القواعد الأساسية فى الشرائع لا يعمل بها الناس فى حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض، فالمبدأ الذى ينص على أن كل متهم برىء حتى تثبت إدانته لا يعمل به الناس، وكذلك المبدأ الذى يشرع أن الشك ينبغى أن يجعل فى مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس فى حياتهم الخاصة، فينشأ عن ذلك قلة التسامح. ولو عملوا بهما كانوا أقرب إلى التقوى والعدل والتدين.

٤١ ـ لقد صدق جوتا إذ قال فى قصة فوست (إن الذى يصمم على أن يعد غير مخطئ إذا كان ذا لسان ذرب سببه أنّ الطلاقة والمهارة فى الكلام قد تهزم قوى ملكات العقل.

٤٢ ـ إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه، ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يظنون أن الرجل الحقير لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر.

* * *

تتمة نظرات السير أرثر هلبس[1]

- ٣٠ -

٤٣ ـ كثيراً ما يكون المرء حتى من كانت عنده شجاعة خلقية كبيرة أداة يحركها غيره أو قرباناً وضحية على مذبح الخداع، كما يحدث فى عالم السياسة أو فى الحياة اليومية المعتادة. وينبغى للمرء أن يمضى فى علمه وفكره لا يبغى تمجيداً ولا حسن ذكرى غير آبه لمدح الناس أو ذمهم؛ فإن طاعة الناس ابتغاء مدحهم قد تكون هزيمة لشجاعته الخلقية.

٤٤ ـ إن الرجل العملى على كثرة مدحه فى هذا العصر الحديث كثيراً ما يتقدم بفكرة واحدة غالبة عليه ليهدم مبدأ عظيماً، فيكون مثله مثل من يقطع بغيظ وجرأة رباط عقد غير كريم، فينقطع العقد وتنتثر حباته، وقد تضيع بعض أحجارها الغالية الثمينة.

٤٥ ـ إن الأسباب التى يتقدم بها إليك إنسان لتفسير سلوكه كثيراً ما تغشى رأيه المستتر فيك؛ فإنه يتقدم بالأسباب التى يظن أنها توافق أخلاقك وترضيك.

٤٦ ـ مما يزيد فى تواضعنا تتبعنا سلسلة الحوادث الماضية فى حياتنا حتى نصل إلى السبب الأول فنجد سبب سعادتنا أو تعاستنا سوء تفاهم تافه أو تأخر طرفة صغيرة أو أشباه ذلك من الحوادث التى تدل على سخر الحياة؛ إذ أن السعادة أو التعاسة ليست مؤسسة دائماً على أسباب هامة كبيرة.

٤٧ ـ يشعر الناس بنوع من الغرور والإعجاب بالنفس يدعوهم إلى الغرور

(١) المقتطف: أبريل سنة ١٩٥١.

بشراستهم والإعجاب بقلة أدبهم؛ إذ يحسبون ذلك فضيلة فيهم تجعل الناس تهابهم فيمعنون فى الشراسة وقلة الأدب ويعتبرونهما ميزة لهم وحقّا.

٤٨ ـ إن القرد يحاكى لمهارته فى المحاكاة، والأغنام تحاكى لأنها ليس عندها عزيمة وعقل، ولكن الانسان هو المخلوق الذى قد يحاكى الأمر الذى يكرهه وما يعرف أنه خطأ خشية لوم الناس.

٤٩ ـ مما يدل على جلال الصدق وضرورته أن الإنسان إذا كذب مرة تحايل بالكذب مرة أخرى، كى يثبت أنه كان صادقًا فى المرة الأولى، فيمعن فى الباطل كى يخفى كذبه، ويكون كالحيوان الذى يحفر جحرًا عميقًا كى يختفى فيه عن الناس، وعمل الإنسان هذا قد يكون سببه الرغبة فى الظهور بالكمال أو قد يكون مؤسسًا على اعتباره أن الكذب مكروه متساو فى شناعته، فإذا كذب كذبة صغيرة شفعها بأخرى كى يخفيها، والعاقل من يعرف أن كل إنسان به شىء من الباطل فلا يجد داعيًا لأن يتورط فى الباطل، فيكون شبيهًا بمن يريق الحبر على ثيابه كى يخفى بقعة منه عليها.

٥٠ ـ إنك إذا أكرمت إنسانًا وكان إكرامك إياه يجلب لك منفعة ومسرة فإنك لا تستطيع أن تنال دائمًا اعترافه بجميل ما صنعت، لأنه قد يحمله على محمل إرادتك المنفعة والمسرة لك لا نفعه وإكرامه بالجميل الذى صنعت معه.

٥١ ـ إن الناس كثيراً ما ينفرون ممن لا يخطئ أبدًا ويسيئون به الظن، كما ينفر الناس ممن عنده ذلاقة يستطيع أن يثبت بها أنه دائما على حق.

٥٢ ـ إذا خدعك من حولك كثيرًا فاعلم أنك خليق بأن تخدع، إما لضعفك وتصديقك كل ما يقال لك، وإما لطغيانك وعدم السماح لهم أن يسمعوك ما تكره سماعه.

٥٣ ـ إن من الضعف أن تخفى عمن تستشيره فيه خشية أن تطلعه على أسرارك التى تود أن تبقى خافية، وأضعف من ذلك أن تأخذ برأيه ونصيحته عند ذلك، لأن رأيه يكون مؤسسًا على ما أبديت له دون ما أخفيت عنه.

٥٤ ـ لا تطلع أحدًا على سر قد يضره كتمانه إذا عرف أنه كان يعرفه، فإن الحذر كثيرًا ما يدعو إلى إفشائه تجنبًا للضرر، ولا تحسب أن طلب العطف والمعاونة يُسَوِّغُ إطلاعك إياه عليه، ولا تطلع أحدًا على سر يزداد عظمة وربحًا بإفشائه، فإن حب العظمة أو الربح كثيرًا ما يغلبان الأمانة.

٥٥ ـ كثيرًا ما يأخذ المرء بالفكرة الشائعة من غير تمحيص أو بحث، ثم يجادل ويدافع عنها بكبر وازدراء كأنه أفنى عمره فى تمحيصها وبحثها.

٥٦ ـ قد يُصر الرجل بعد غضبه على صدق كلمات قالها فى حالة فورة غضبه، ولم يكن يريد الأخذ بها لولا ذلك الغضب، فيكون مثله مثل من انتقل من حالة هذيان مؤقت إلى حالة جنون دائم.

٥٧ ـ من الغريب أن الناس لا يتقاتلون ولا يتعادون كما يفعلون ذلك فى الأمور العويصة الغامضة التى لا تدركها عقولهم مثل أُمور ما وراء الطبيعة، مع أن عدم فهمهم إياها كان ينبغى أن يعلمهم التسامح.

٥٨ ـ ليس فى الناس مخدوع مثل من يخدع نفسه بمعرفة نصف خداع المخادع، وهو يظن أنه يعرف كل نواياه ومقاصده.

٥٩ ـ إن كلمة (الناس) كثيرًا ما يقصرها المرء على طائفة قليلة حوله أو على إنسان أكثر منه دراية ومنطقًا، وهذا ما يصنعه إذا فعل شيئاً أو قال قولا يريد تأييده، فيقول: إن الناس يريدون ذلك أو يفعلونه ـ وهذا مثل كلمة (الشعب) التى كان المتطرفون فى عهد الثورة الفرنسية الأولى يطلقونها على حثالة الرعاع من الباريسيين.

٦٠ ـ إن عبد العادة القديمة قد يسخر من عبد الأمور المستطرفة الحديثة السارية، وكلا الأمرين رق ما دام عقل المرء مغلولا بما يتبع.

٦١ ـ كثيرًا ما يمقت الناس من يدعى الفضل ويخافون ممن يحاول الظهور به ويحسبون أن ذلك إساءة إليهم وتَحْقِيرٌ لهم، مع أنه قد يحاول بما يظهر به التقرب

إليهم وإيناسهم وطلب العطف ونيل الرضا. وقد ننسى أن الرجل قد يقول السخر وتحت ذلك السخر قلب رحيم. كما قد ننسى أن كثيراً من الناس مختلفون عنا، فليس عندنا وسيلة للحكم عليهم.

٦٢ ـ لكى يمنع الإنسان كبح نفسه عن الرذائل من أن يبعث فيه الغرور وما يجره الغرور من الآثام ينبغى أن يتأمل الهاوية التى كان على وشك أن يقع فيها لو أنه لم يكبح نفسه عن الرذائل بدل الشعور بالكبر والغرور واضطهاد الناس.

٦٣ ـ الصدق هو أعم مظهر من مظاهر إنكار الذات وأكثرها تنوعًا؛ لأنه كثيراً ما يعترض بين المرء وبين ما يحب، ولكن المرء كثيراً ما يخفى بعض الحق حتى ولو كان صريحًا ببعضه، إذ يرى أن إخفاء القليل الذى يعده تافهًا قد يؤدى إلى كسب محقق أو يتفادى بإخفائه خسارة يرى أنها محققة فيخفيه استهانة بتفاهته، حتى ولو أدى ذلك إلى سوء فهم للأمور، وقول الحق لا يكون إلا بعقل متزن؛ لأن التضليل قد يكون سببه المبالغة التى تكون طبعًا فى النفس. أما الاندفاع فى القول فهو تضليل غير مقصود، ولكن ذلك لا ينقص من ضرره. وقول الحق ينبغى أن يؤدى إلى أن يزداد المرء معرفة بنفسه كما ينبغى أن يؤدى إلى قدره غيره قدراً صحيحًا. ولو عرف الناس نفوسهم لتسامح بعضهم مع بعض وبطل الاضطهاد.

٦٤ ـ إن الطبع الذى يجمع بين الصراحة فى القول والحذر والاحتياط من أن يفهم السامع أكثر مما يعنى بقوله لا يتهيأ إلاّ لمن كان سليم المقاصد والأعمال، وكان يقدر قدراً لطيفًا دقيقًا إحساسات غيره، وهذه صفات تدله على ما يجوز أو يحكى عن أمور نفسه وما يجوز أن يتحدث به عن أمور غيره بصراحة مقرونة إلى الحذر والاحتياط.

* * *

نظرات ابن المقفع[1]

- ٣١ -

قال الأمير شكيب أرسلان فى مقدمة (كتاب الدرة اليتيمة) لابن المقفع - وهو الكتاب الذى طبع فى مصر وسمى (الأدب الكبير) - «فاخترت طبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة، وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولابعدها» - والأمير شكيب أرسلان أديب مطلع على كتب الآداب العربية، فهو لايرسل القول من غير تمحيص بعد أن قرأ كتب الجاحظ والماوردى وابن مسكويه وابن حزم وابن عبد ربه وغيرهم، ومن المستطاع العثور على حكمة وبلاغة فى كتبهم، ولكنها إما مقتبسة من الخطب والأقوال، وإما أنها مع بلاغتها لا تصل إلى ما تصل إليه حكمة ابن المقفع من الإلمام بعادات الناس وطباعهم وأخلاقهم ونزعات نفوسهم وسلوكهم فى الحياة مع بلاغة الإيجاز. ولعل الأمير أرسلان لاينحو فى قوله منحى المقرظين الذين اعتادوا المبالغة والتعميم فى كل مدحة، ولعله قارن ووازن وخلص إلى هذا الرأى وقد فطن الكتّاب إلى تلك الحكمة التى يطريها الأمير شكيب، فكان الكتاب فى عهد الجاحظ يحاكونها وينسبون مؤلفاتهم إلى ابن المقفع كى تروج كما اعترف الجاحظ نفسه وإلاّ كان نصيبها الكساد والبوار، أما ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة من الفارسية فهى تذكرنا قول جوته: «إن المترجم كالخاطبة فى البلاد الشرقية تنقل محاسن العروس المحجوبة إلى الفتى الذى يريد أن يتزوجها فتشوقه تلك المحاسن» - فالمترجم

(١) المقتطف: مايو سنة ١٩٥١.

شريك المؤلف يعرض بضاعته أحسن عرض بما يناسبها فى اللغة التى يترجم إليها وإلا ما أجاز ابن المقفع لنفسه أن يضم إلى كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير أقوالاً ذكرها فى كتاب كليلة ودمنة ومعانى كأنها من معانيه؛ ومن أجل ذلك يقول فى كتاب الأدب الصغير: «إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعًا فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبدع ليس زائدًا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتًا وزبرجدًا ومرجانًا فنظمه قلائد وسموطًا وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً فصار ذلك شفاء وطعامًا وشرابًا منسوبًا إليها مذكورا به أمرها وصنعتها ـ ويبقى بعد ذلك فرق ما بين الصانع الصّناع والألمعى النجيب وبين الساطى الذى يسرق الكلام كما هو أو يذهب بمحاسنه فهمه».

وابن المقفع على ما فى قوله من حكمة وإدراك للأمور لم يعصم فى معاملة السلطان الأكبر وهو الخليفة المنصور، ولا فى معاملة عامله على البصرة وهو سفيان بن معاوية بن يزيد ابن المهلب بن أبى صفرة من هنات تخالف ما رسم لمعاشر السلطان ومخالط الوالى وجليسه من حكمة وأدب، فلم ينتفع بحكمته، ونسى قوله إن على من يريد أن يكون إمامًا أن يعظ نفسه ويتعظ قبل محاولته وعظ الناس. وقوله: إن العالم يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره فحسب. فكان مثله مثل فرنسيس باكون الإنجليزى (لورد باكون) فإنه يقول: «إن على القاضى ألا يتخذ القضاء شباكًا وحبائل يقتنص بها الناس» ثم يكون من أواخر القضاة الإنجليز إن لم يكن آخرهم ـ الذين استخدموا التعذيب وسيلة لانتزاع الاعتراف من نفوس المتهمين، ويعظ الناس بالنزاهة ثم يأخذ الرشوة من المتقاضين، وينصح المفكرين بالاستنتاج المؤسس على المشاهدة الصحيحة، دون التعلق بالأمور النظرية من غير بحث ثم يرفض كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة التى وصل إليها الباحثون بالطريقة التى حثّ عليها. فكانت حكمة باكون فى كل هذه الأمور لغيره لا لنفسه، كما كانت حكمة ابن المقفع،

وعلى من يعيبه أن يبحث أولا فى قوله وعمله، فإن حكمة أكثر الناس لغيرهم لا لنفوسهم فى كثير من الأمور. ويذكرنا ابن المقفع باكون فيما يولع به كلاهما من التشبيهات والأمثال والقصص التى يجلو بها حكمته، وكانت هذه الطريقة محبوبة شائعة فى الأدب الإنجليزى فى عهد الملكة الياصبات وجيمس الأول، ومن أوجه الشبه بينهما أن كليهما مولع بالأساطير التى فيها حكمة ومغزى.

فألف باكون كتابه فى أساطير الإغريق وسماه (حكمة القدماء) وأوضح فيه ما خلف أساطيرهم من حكمة بارعة، كما ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية أساطير الهند وحكمتهم فى كتاب (كليلة ودمنة) وكل من ابن المقفع وباكون ماهر فى بلاغة الإيجاز. وقد يذكرنا ابن المقفع فى وصف آداب السلوك أديبًا إنجليزيا آخر وهو لورد تشسترفيلد، فإن هذا كان همه وصف آداب السلوك كى يهذب ابنه ويصقله. أما أدباء اللغة العربية فلعله لا يقاربه ويقرن به إلاّ الجاحظ على ما فى الجاحظ من مدح للشىء ومدح لضده، وكتب الجاحظ عالم فى الموضوعات المتنوعة، فلا غرابة إذا اختلف أسلوبه فى كتاب عما هو فى كتاب آخر. فنرى أسلوب الجاحظ فى كتاب (مناظرة الربيع والخريف) أكثره سجع ومزاوجة وموازنة ومقابلة ومرادفة، بينما هو فى كتاب (الدلائل والاعتبار) يكاد يخلو من هذه الأمور ويصدق فيه قول بديع الزمان الهمذانى: إنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله «أما عبد الله بن المقفع فأسلوبه على وتيرة واحدة حتى قيل إنه السهل الممتنع، وفى بعض الأحيان يستعمل المزواجة والموازنة، ولكن لا كاستعمال الجاحظ لها؛ فإن الجاحظ يطيل فيها ويكثر، وهى فى أسلوب الجاحظ لها وقع السجع فى الأذهان حتى إن من لا يلتفت قد يظنها سجعًا. والذى يمتاز به ابن المقفع بلاغة الإيجاز، ولا نعنى أن الجاحظ ليس له من الحكم الجوامع، ولكن أكثر أقوال ابن المقفع ـ ولا سيما فى كتابى (الأدب الكبير) و(الأدب الصغير) ـ من جوامع الكلم التى تجمع الحكمة فى بلاغة وإيجاز مع استيفاء المعنى، أو ما يكاد يكون استيفاء، وينبغى أن نتذكر أن ابن المقفع كان منكوبًا، والمنكوب مخذول فى دعاوى الناس مغبون فى أقوالهم

ومصاب بأكاذيبهم وأباطيلهم، فلا تستطيع الأجيال التى بعد عهده أن تميز الحق من الباطل فى كثير مما ينحل من القول وما ينسب إليه من الفعل، إذ هو مهتضم بعد النكبة لا يجد من ينافح عنه بتمييز الصواب فيما ينسب إليه حتى ولو كان مشهورًا محسودًا يحتذى الناس قوله. ولا مناص لنا على هذا الأساس من القول إن حكمته لم تعصمه من الزلل والهلاك، ولا نحسب أن كاتبًا قديرًا مثله كان يستعصى عليه أن يجمع بين شدة المواثيق ولين اللفظ والتحايل لذلك فى كتابه الذى طلب فيه الأمان لعم المنصور الذى ثار عليه وهزم، ولا نظن أنه كان يجهل ما فى بغض أقواله من عبارات يتأذى بها الخليفة ولا يتسامح فيها، حتى ولو كتبها على لسان أعمامه مثل قوله (إذا غدر بعمه فنساؤه طوالق والمسلمون فى حل من بيعته) ولكن المرء قد يجمع إلى الحكمة والمعرفة رعونة الطبع، وهذا كان داءه إذا صحَّ كل ما ينسب إليه مثل تطوعه بالسخر والسفه على حاكم البصرة. فكان إذا دخل عليه وسلم قال: السلام عليكما يعنى هو وأنفه، فأنزل أنفه منزلة الإنسان لأنه كان كبيرًا، وإذ قال حاكم البصرة: ما ندمت على سكوت قط: قال ابن المقفع: «الخرس زين لك فكيف تندم عليه» يعنى أنه كان عيا. وإنه لأمر يدعو إلى الحيرة أن يكون الحاكم مهزلة لرجل مثل ابن المقفع مهما يكن أثيرًا عند أعمام الخليفة، وعندما أمر المنصور بقتله قتله هذا الحاكم شر قتلة. ومن الدليل على رعونة طبعه فيما يحكى عنه أنه لما اعتزم الإسلام وكان مجوسى الأصل وحضر طعام الأمير جعل يزمزم على الطعام على عادة المجوس فليم فى ذلك، فقال: أحببت ألا أبيت على غير دين، وهو إما أنه اقتنع بالإسلام حتى أراد أن يشهر إسلامه فى غده فهو مسلم بعقله وقلبه فلا معنى لقوله. وإما أنه كان غير مقتنع وكان إسلامه نفاقًا، وقد اتهم بذلك واتهم بالزندقة. ومن رأيى أن من حماقة الطبع أيضًا الجملة المشهورة التى يرويها عنه الكتّاب أى قوله «شربت الخُطَب ريًّا ولم أضبط لها رويًّا، ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام وليس غيرها كلامًا» وهذا سجع شبيه بسجع الكهان. ثم لماذا قصر شربه على الخطب دون غيرها من سائر أنواع النثر، نعم إن للبلاغة نشوة، ولكنه فى بعض قوله ينهى

القارئ عن جميع أنواع السكر سكر الشباب وسكر العلم وسكر الذكاء وسكر الجاه وسكر القدرة وسكر المال، وهو فى بعض قوله يوضح ما فى مدح النفس من سماحة. ومما يروى بصدد ذلك أن الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع العروض سُئل عن ابن المقفع فقال: علمه أكثر من عقله، وسُئل ابن المقفع عن الخليل فقال: عقله أكثر من علمه. ومن الغريب أن المرء عندما يقرأ كتبه ينسى رعونة طبعه أو يكاد يشك فيما نسب إليه من القصص التى تدل على ذلك ويعترف أنه أكبر كتّاب العربية فى جوامع الكلم وبلاغة الإيجاز والحكمة المؤسسة على ما يشاهد من عادات الناس وطباعهم وأخلاقهم التى تخبر عنها أعمالهم فى إيجاز واستيفاء للمعنى أو شبه استيفاء، وهذا هو معنى تقريظ الأمير شكيب أرسلان الذى ذكرناه.

وفيما يلى بعض نظراته مع شىء من التعليق علي بعضها: ـ

١ ـ لا يمنعنك صغر شأن أمرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صوباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريمًا؛ فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها.

٢ ـ إذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته، ولا تترك من الشر إلاّ ما كرهته فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمتك. فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من عمل الخير فيكرهه إليك وفيما تكره من عمل الشر فيحببه إليك، ولكن ينبغى لك فى حب ما تحب من الخير فيكرهه إليك، وفيما تكره من عمل الشر فيحببه إليك، ولكن ينبغى لك فى حب ما تحب من الخير التحامل والصبر على ما يستثقل منه، وينبغى لك فى كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه.

٣ ـ إنه تكاد تكون لكل رجل غالية حديث إما عن بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من وجوه الرأى أو ما هو شبيه بذلك، وعندما يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك فى كل موطن.

* * *

تتمة نظرات ابن المقفع[1]

ـ ٣٢ ـ

٤ ـ لا يوقعنك بلاء خلصت منه فى آخر لعلك لا تخلص منه ـ وقد يخلص الناس من بلاء بوسائل توقعهم فى بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما وجدوا خلاصًا سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذه وسيلة للخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذى يخلص من بلاء بكذبة موبقة وادعاء يوقعانه فى مؤاخذة لو عرف بطلان كذبه وادعائه، أو مثل الذى يتجنى على آخر ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنبه بجناية أخرى.

٥ ـ لو أن رجلا كان عالـمًا بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلاً، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره فكان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته، وأقل الناس عذراً فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة، غير أن البصير أقل عذرًا عند الناس من الضرير إذ كانت للأول عينان يبصر بهما، وهذا بما صار إليه جاهل ـ وللفيلسوف سقراط رأى فى موضوع الشر والخير فهو يقول كما روى أفلاطون

(١) المقتطف: سبتمبر ١٩٥١.

عنه: إن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم أنه شر، ولا يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير، ولعله يعنى أن الأهواء تغطى على بصيرته فيصير علمه جهلا، وتوهمه أن فى عمل الشر خيرا أكبر، وفى تجنب بعض الخير خيرا أعظم، وهذا كما وصف به المأمون العلم فقال: العلم بصر فى خلافه العمى، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به.

٦ ـ إن فى الناس ناسًا كثيرًا يبلغ من أحدهم الغضب ـ إذا غضب ـ أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته، وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك. ثم يبلغ به الرضا ـ إذا رضى ـ أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، يعطى من لم يكن أعطاه، ويكرم من لا حق له ولا مودة. فاحذر هذا الباب كله؛ فإنه ليس أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضاهم، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله ويتخبطه المس من يعاقب فى غير من أغضبه، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه، لكان جائزًا فى صفته ـ (وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل رسلهم الذين يبلغونهم خبرًا سيئًا، كفرعون فى قصة ثيوفيل جوتييه، كما يذكرنا أيضًا دانتزيو الشاعر الإيطالى الذى كان يمنح من خدمه ومن لم يخدمه من خدم النزل والمطعم مالاً كثيرًا لا تسمو إليه همتهم خشية احتقارهم إياه؛ لأنه كان به الشعور بالنقص).

٧ ـ اعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر، وأن شدة الاتقاء قد تدعو إليك ما تتقى (وتولع بك ما تخاف ممن تخاف؛ لأن الإفراط فى الحذر قد يؤدى إلى الحيرة والارتباك والقلق والتخلق بمظاهر الريبة، والمريب متهم، والريبة تجذب عداوة الناس إلى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد).

٨ ـ قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذل نفسك، ويرغب عنك ناصرك، ومثل ذلك مثل العود

المنصوب فى الشمس إن أملته قليلاً زاد ظله وإن جاوزت الحد فى إمالته نقص الظل ـ (وفى التذلل للعدو يقول إبراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة:

يصبح أعداؤه على ثقة منه وخلاّنه على وجَل

تَذَلّلا للعدو عن ضعة وصولة بالصديق عن دخل

٩ ـ إياك أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فيكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبابًا يفتتحونك منه، وعيبة يغتابونك بها ويضحكون منها. واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده، فإن الراد له محمود، والقابل له معيب ـ (أين هذا الأدب من هراء سجع الكهّان فى الغزل المنسوب إليه: شربت الخطب ريًّا، ولم أضبط لها رويًّا، ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام، وليس غيرها من الكلام).

١٠ ـ أُمور لا تصلح إلاّ بقرائنها: لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل، ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا الغنى بغير جود، ولا المروءة بغير تواضع، ولا الخفض (أى اليسر) بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق ـ (وإلا أدى العقل إلى الفساد، والحفظ إلى الخطأ، والبطش إلى الانكشاف والانخذال، وكان الجمال سمجًا، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة، وواء السرور همًّا وقلقًا، وكان الغنى بَطَرًا ولؤمًا، والمروءة مَنًا، والخفض عسرًا لا يغنى والاجتهاد عناء وخيبة).

١١ ـ إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وحملته تجربته فى صحبتهم على الخطأ ـ وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار إذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم فخا وشركًا يريدون أن يوقعوه فيه ـ وقد يغالى فيحسب كل برىء متهمًا حتى تظهر براءته، بدل أن يحسب كل متهم بريئًا حتى تظهر إدانته، وبطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس.

١٢ ـ إذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك، ويجرئهم عليك ظهورها، ويدعو إليك منهم كل ما تهاب. فاشحذ طائفة من رأيك لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجرأة والتهاون، وعليك بالحذر فى أمرك، والجرأة فى قلبك، حتى تملأ قلبك جرأة، ويستفرغ الحذر عملك ـ (وإنما يريد بالهيبة ذلك الحذر الذى يصون عمله من الخطأ).

١٣ ـ ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم فى لين كلمتك، وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك، وبقاء عزك: (وليس لين الكلمة وحسن البشر نقصًا ومذلة كما يعدهما ذوو النقص. قال المأمون كما روى الثعالبى: ما تكبّر أحد إلا لنقص وجده فى نفسه، ولا تطاول إلاّ لوهن أحسه منها).

١٤ ـ إذا نابت أخاك نائبة من النوائب، من زوال نعمة، أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه فى البلية، وإما بالخذلان فتحتمل العار، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك، وآثر مروءتك على ما سواها، فإن نزلت الجائحة التى تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل (أى فى معاملته وعند ذكره ولقياه) فلعل الإجمال يسعك لقلته فى الناس (إذ أن أكثرهم ينقلب فيصير عدوا كى لا يقال إنه خذل صديقًا).

١٥ ـ اعرف عورتك وإياك أن تُعَرِّضَ بأحد فيما شاركها، واعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال فى التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم، وكل ذلك أَبْيَنُ عند سامعه من وضح الصبح، فلا تكونن من ذلك فى غرور، ولا تجعلن نفسك من أهله.

١٦ ـ من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت، فإذا أنصت لم يحسن الكلام.

١٧ ـ وقّر من فوقك ومن دونك، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء، وليكن آثر ذلك عندك مؤاتاة الإخوان، فإن ذلك هوالذى يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بخنوع لهم، وأن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم.

١٨ ـ إن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة، وليس شئ من أمرها يدركه الحازم إلاّ وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لومًا وعذلاً؛ تقول أنت فعلْتَ هذا بى وأنت أمرتنى، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدا صوابك فلا تمتنَّ ولا تكثرنَّ ذكره، ولا تلم عليه إن كان استبان فى ترك نصحك ضرراً، تقول ألم أقل لك؟ ألم أفعل؟ فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

١٩ ـ العجب آفة العقل، واللجاج عقيد الهوى، والبخل لقاح الحرص، والمراء فساد اللسان، والحمية سبب الجهل، والأنف توءم السفه، والمنافسة أخت العداوة: (فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ، والكثير اللجاج كثير العناد فى الدفاع عن هواه، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله، والمراء يستدرج إلى بذاءة اللسان، والحمية إذا استشرت كانت من دلالات الحمق، والأنف من التسهل فى معاشرة الناس يؤدى إلى السفه، والمنافسة فى حطام الدنيا كثيراً ما تؤدى إلى العداوة بين الآحاد والأمم).

* * *